

نظرات في كتاب «مهيار الديلمي : حياته وشعره» *

للدكتور عصام عبد علي

إعداد الدكتور إسماعيل أحمد العالم **

جامعة اليرموك

نشطت في السنوات الأخيرة حركة دراسة حياة الشعراء وشعرهم ، ولا سيما من لم يلقوا اعتناء واهتماما في عصورهم ، ومرّد ذلك كونهم من المغمورين أو المقلين ، أو لأنهم يعبرون بصراحة في أدبهم عن عصرهم . وقد أخذ عدد غير قليل من الجامعات العربية في العمل على بعث تراث هؤلاء الشعراء للتعرف إلى ما صدر عنهم من نتاج شعري ، وما اتسم به هذا الشعر فنيا .

لقد سبق كتاب «مهيار الديلمي : حياته وشعره» بعدد من المؤلفات والمقالات التي تناولت مهيار الديلمي وشعره ، وقد أشار المؤلف إلى كثير منها في ثبوت مصادره ومراجعته ، كما أشار في مقدّمة كتابه إلى الأسباب التي دفعته للوقوف عند مهيار وشعره ، إذ أن شعره كما قال المؤلف يعدّ وثيقة فنية واضحة المعالم توضح نهاية التطور الفني للشعر العربي وبداية السقوط لهذا الشعر في رحلته الطويلة ، كما أن شعر مهيار في محتواه يمثل صورة ناضجة لقصيدة التشيع وتطورها ، وهو يعدّ ذلك النموذج الواضح للتلمذة الشعرية وتطورها في الشعر العربي .

لقد جعل المؤلف كتابه في قسمين : القسم الأول تحدّث فيه عن عصر الشاعر من الناحية السياسية والاجتماعية والأدبية ، كما تحدّث عن حياة مهيار الشخصية . والقسم الثاني تحدّث فيه عن شعر مهيار وفنونه ، متناولا ديوان الشاعر وماله من نسخ مطبوعة ومخطوطة ، ومما يحمّد للمؤلف في هذا المجال أنه كان يدي بدلوه في إبداء رأيه من حيث الترجيح أو الشك في نسخ الديوان ، وفي هذا القسم درس المؤلف فنون شعر مهيار ، مديحه ورثاءه ووصفه ونسيبه ، والتشيع والشعبية في شعره ، ودرس أيضا علاقة مهيار بأستاذه الشريف الرضي ، مختتما هذا القسم بإفراد فصل يتحدّث عن منزلة مهيار الفنية .

(٥) الكتاب من منشورات وزارة الاعلام ، الجمهورية العراقية ، سنة ١٩٧٦ م .

(٥٥) استاذ مساعد ، دائرة اللغة العربية ، دكتوراه في الأدب الاسلامي ، جامعة القاهرة ، سنة ١٩٧٩ .

حقا لقد بذل المؤلف جهودا تستحق الثناء والتقدير وليس من شك في وعورة الطريق التي يسلكها من يقف عند مهيار الشاعر الذي اكتنفه الغموض ولفته الشكوك ، فقد ظلت أصابع الاتهام تشير إليه مثيرة الشكوك حول إسلامه ، كما كثرت الآراء المتناقضة حول فنية شعره ، فهناك من النقاد القدامى ومؤرخي الأدب من أنكر مهيارا أشد الإنكار ، وفصل ألا يشير إليه ، وألا يضعه مع أدباء عصره ، وهناك أيضا من هؤلاء من نظر في شعر مهيار نظرة فاحص مدقق ليستشهد به وليسوغه بعد تحليله من العيوب والنواقص ، ولم يكن هذا التناقض في الرأي عند عصر بعينه ، فما زالت الآراء المحدثه التي تتناول مهيارا مختلفة حوله بين الإعجاب الواسع والإشارة الصريحة إلى الفراغ الفني الفكري في شعره .

من هنا كانت وقفتي مع كتاب «مهيار الديلمي : حياته وشعره» وقد تمخضت عنها الملاحظات التالية ، أضعها بين يدي المؤلف ليكون على علم بها وحسب .

الملحوظة الأولى ، وتعلق بالناحية الموضوعية :

أ — خلا الكتاب من أفراد قسم أو فصل خاص لتبيان الناحية الفنية في شعر مهيار ، وإن الملح المؤلف إليها في ثنايا جزئيات البحث ، إلا أنها جاءت شديدة الاقتضاب ، قليلة التمثيل الشعري ، ولا تبين عن فنية مهيار .

ب — جاء في كتاب المؤلف في الصفحات ٥ ، ٥١ ، ١٠٨ «إن شعر مهيار وثيقة فنية واضحة المعالم توضح للباحث نهاية التطور الفني للشعر العربي ، وبداية السقوط لهذا الشعر في رحلته الطويلة» . لا شك في أن الدافع لهذه المقولة عن شعر مهيار ، يعود لما وجده المؤلف من محسنات بديعية وتكرار وتقليد فيه . إنني لا أوافق المؤلف فيما ذهب إليه ، لأنني أرى أن الشاعر الحق هو الذي يمثل بشعره عصره تمثيلا صادقا ، ولا تشريب أن ينجح إلى أساليب شعرية ذات قوالب وصبغة معينة تتفق وما عليه العصر . لذا فإن التسميات التي اصطلح عليها بعض الأدباء وبخاصة المحدثون منهم والمتمثلة بوسم أدب عصر من العصور بالسقوط أو الانحدار أو الانحطاط ، تسميات خاطئة ، لأن الأدب عامة والشعر خاصة كانا دائما يمثلان العصور والبيئات التي وجدا فيها ، وهذا هو قمة الصدق الفني .

جـ — ورد في صفحة «١٢١» من الكتاب ما يدل على أن مهياراً أولع بالألفاظ اللينة والسهلة ، والمؤلف يعيب ذلك على مهيار ، دون أن يتقصى سبب ميل مهيار إلى التعامل مع الألفاظ السهلة واللينة في شعره ، علماً أن المؤلف يقول في صفحات أخر من كتابه إنَّ الأمراء والوزراء كانوا يوسطون غيرهم من أجل الحصول على مدحة من مهيار بألفاظ سهلة لينة ، وهذا يعني أن مهياراً كان يلجأ إلى استخدام ما سهل من الألفاظ ولان ، لتناسب موقفاً يريده أو استجابة لطلب أمير أو وزير ، ويشهد على ذلك ما بثّه الشاعر في ديوانه من ألفاظ تتسم بالخشونة والوحشية .

د — وجاء في الصفحات ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ما يؤكد أن الشاعر مهياراً كان يكثر من استخدام الدعاء الطويل للممدوح في قصيدة المديح ، وقال المؤلف «ويعدُّ ذلك عند الشعراء والحدّاق مكروهاً» . والحقيقة ان من يطالع قصيدة المديح في الشعر العربي قديماً وحديثاً يرى أن الدعاء جزء من أجزائها ، ومعنى من معانيها ، يوجهه الشاعر للممدوح ، فلا جرم أن يذهب مهيار هذا المذهب و يؤكد في قصيدة المديح ، وإن أطال في ذلك فمردّه إلى أجنبية مهيار عن اللغة (١) .

هـ — ورد في صفحة ٣٢٩ قول المؤلف : «... وقد ساهمت ضحالة الثقافة العربية في نمو مظاهر التقليد والتكرار ، وهي إن بدأت بشعر مهيار فإن الذين جاءوا بعده أوضحوا هذه الظاهرة في شعرهم ...» .

أوافق المؤلف على أن التقليد والتكرار من سمات ضحالة الثقافة ، ولكن التقليد والتكرار لم يبدأ بشعر مهيار ، فهناك من شعراء الجاهلية والإسلام والعصر العباسي الأول من ظهر في شعرهم التقليد والتكرار .

الملحوظة الثانية ، وتتعلق بالناحية الشكلية :

ومنها : ملحوظات لغوية ، كاستعمال المؤلف الفعل «اعتبر» وما يتصرف عنه كثيراً ، والصحيح أن يستعاض عنه بالفعل «عدّ» وما يتصرف عنه ، واستعمل الفعل «قارن» وما يتصرف عنه غير مرة ، والصحيح أن القدامى استعملوا «وازن وموازنة» ، ولهذا وجدناهم يقولون على سبيل المثال : «الموازنة بين الطائيين» ، و «الموازنة بين الشعراء» ، وأورد

(١) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف بمصر ، ص ٣٥٩ .

المؤلف الفعل «توفر» وما يتصرف عنه غير مرة ، والصحيح «توافر» ، فنقول «توفر فلان على كذا» بمعنى وقف حياته على كذا ، أما «توافر» وهي ما قصده المؤلف وأراده فتعني «كثر» (٢). وجاءت كلمة «بين» مكررة في استعمالات المؤلف في غير قليل من كتابه ، والصحيح أن تأتي «بين» مكررة إذا أضيفت إلى ضمير ، أما إذا أضيفت إلى اسم ظاهر فلا تتكرر (٣). واستخدم المؤلف كلمة «ساهم» ، و «ساهم» بمعنى «شارك» ليس فصيحاً ، لأن «ساهم» تعني قارع بالسهم ، وأما بمعنى «شارك» فالفصحح أن نقول «أسهم» (٤). ومن تعبيرات المؤلف في كتابه صفحة «١٥٦» قوله «تكلت كتب النقد» عن «التكرار في الشعر». والصحيح «تكلت كتب النقد» على «التكرار في الشعر». فالفعل «تكلم» وما يتصرف عنه يستخدم معه «على» إذا كانت بمعنى الظرفية ، وحجبتنا في ذلك ما ورد في الشعر العربي وما التزم به علماء اللغة (٥).

وملاحظة حول الأشعار ، هذه الملاحظة تتعلق بشرح الشعر وتفسيره ، وعلى الرغم من غنى الشرح بكثير من الفوائد ، فإنه لم يشمل الشعر كله ، فقد اختار المؤلف بعضاً على بعض ، ولذا اهتضم حق بعض الأبيات ، ولا أرى سبباً لهذا التفاوت في المعاملة ، فهناك ما يستحق التفسير في شعر مهيار ، وخاصة ما ورد منه في صفحة رقم (٢٠٨) ، فالكلمات : لغوب ، القشاعم ، الأراقم ، الشكائم ، النضار ، كلها كلمات أرى أنها تحتاج إلى تفسير .

وملاحظات تمس فهرس المصادر والمراجع ، لقد رتب المؤلف مصادره ومراجعته بالنظر إلى أسمائها لا بالنظر إلى أسماء مؤلفيها ، وكلا الوجهين جائز ، ولكن كثيراً ما لبس الأمر على المؤلف ومثال ذلك فقد رتب كتاب «أدب المرتضى» قبل كتاب «أدب الشيعة» ، وكتاب «إيضاح المكنون» قبل كتاب «أيام العرب في الجاهلية» ، وكتاب «تاريخ التمدن الإسلامي» قبل «تاريخ بغداد» وبعد ، فهذه هي أهم ملحوظاتي على كتاب «مهيار الديلمي : حياته وشعره» أضعها بين يدي المؤلف لعله يفيد منها أو من بعضها إن هو أعاد طبع الكتاب ، كما أضعها بين يدي القارئ فقد يجد فيها بعض الفائدة ، يدفعني إلى ذلك كله حرص على تنقية الكتاب ، وتعلق بأهداب الصواب .

(٢) ابن منظور ، محمد بن مكرم بن علي ، أبو الفضل ، جمال الدين (ت ٧١١ هـ) ، لسان العرب ، دار لسان العرب ، بيروت ، مادة «وفر» .

(٣) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة «بين» .

(٤) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة «سهم» .

(٥) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة «كلم» .